

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومي

من بين المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في تاريخ مصر الإسلامية في العصور الوسطى ، كتب أرخها كتاب ومؤرخون مسيحيون من مصر ، أو غيرها من البلدان ، مثل سعيد بن بطريق ، البطريرك الملاكاني في مصر والمعروف باسم أوتينا صاحب كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (ت ٣٢٨ = ٩٤٠م) ، ويحيى بن سعيد الانطاكي (ت ٤٥٨ = ١٠٦٦م) صاحب « التاريخ » أو « صلة كتاب سعيد بن بطريق » ، وابن ممانى (ت ٦٠٦ = ١٢٠٩م) صاحب كتاب « قوانين الدواوين » وابن العبري (أبو الفرج بن هرون اللطفي) (ت ٦٨٥ / ١٢٨٦م) صاحب كتاب « تاريخ مختصر الدول » ، وابن العميد المعروف بالمسكين (ت ٦٧٢ / ١٢٧٣ - ١٢٧٤م) صاحب كتاب « تاريخ المسلمين » .

*

أما صاحبنا ساويرس بن المقفع فقلما يعرفه العلماء والطلاب الباحثون في تاريخنا الوسيط . ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس أرخ لبطاركة الكنيسة ، فظن الباحثون - خطأ - أن تاريخ البطاركة والكنيسة المصرية لا يرتبط بتاريخ مصر .

ولم يترجم لساويرس أحد من أصحاب كتب التراجم المعروفة وإنما نعرف عنه مما كتب هو عن نفسه ، ومما كتب عنه في الكتاب المنسوب إليه وهو كتاب « سير الآباء البطاركة » أو « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » .

وقد كان ساويرس أسقفًا للأشمونين التي تقع بين المنيا وأسيوط في الوجه القبلي . ويحدثنا عنه الأنبا ميخائيل أسقف مدينة تنيس في زمن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وأحد الذين كتبوا في تاريخ الكنيسة المصرية في الكتاب المنسوب إلى ساويرس ، فيقول : « وكان من جملة الأساقفة أسقف قديس فاضل على كرسي الأشمونين يسمى ساويرس ويعرف بابن اللقع . وكان كاتباً ثم صار أسقفًا ، وأعطاه الرب نعمة وقوة في اللسان العربي إلى أن كتب كتباً كثيرة وميامر (١) ومجادلات (٢) .

وكذلك يعطينا الأنبا ميخائيل قائمة بمؤلفات ساويرس تصل إلى العشرين بالإضافة إلى المقالات والمواعظ والتفاسير .

*

والظاهر أن كل ما كتبه ساويرس كان يتصل بالناحية الدينية ، أي شرح العقيدة الأرثوذكسية والانتصار لها ، مثل كتاب « طب الغم وشفا الحزن » وكتاب « التبليغ رد على اليهود » وكتاب « الرد على سعيد بن بطريق » وكتاب « التوحيد » وكتاب « الاتحاد » وكتاب « اختلاف الفرق » وكتاب « السير » (٣) ولعل الكتاب الأخير هو سير الآباء البطارقة الذي بين أيدينا الآن . أما بقية الكتب فلا نعرف عنها شيئاً .

ونحن لا نعرف سنة وفاة ساويرس ولكن يتضح لنا مما كتب في سير الآباء البطارقة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وفي أواخر القرن العاشر الميلادي .

(١) ميامر جمع ميمرا وهي كلمة ليست عربية معناها مواعظ .
(٢) ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية . المجلد الثاني . الجزء الثاني ص ٩٢ (مطبوعات جمعية الآثار القبطية) .
(٣) أنظر ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية . المجلد الثاني . الجزء الثاني ص ١٠٩ - ١١٠ (نشر جمعية الآثار القبطية) .

مصادر كتاب ساويرس

وقد جمع ساويرس معلوماته وأخباره مما وجدته في الأديرة المختلفة مثل دير القديس أبي مقار ودير نهيا ودير وادي هيب (أو وادي النظرون) وغيرها من الديارات، ومما وجدته في أيدي النصارى . ويذكر ساويرس أنه أضاف إلى معلومات الأوائل ما عرفه هو من سير من شاهدتهم من الآباء البطارقة .

ويتضح مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت هي السائدة في ديار مصر في عصره (أى في القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) وأن غالبية المسيحيين في مصر أصبحوا يجهدون اللغة القبطية التي كانت اللغة القومية للمصريين حين فتح العرب أرض مصر ، وكذلك اللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة ، والتي كتبت بها الإنجيل ، الشهيد ماري مرقس الأنجيلي الحواري أول بطرك للاسكندرية . ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة في ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطي أو اليوناني .

وقد أتم كتاب ساويرس من آتى بعده من الكتاب والأساقفة . ولكن الكتاب ينسب إلى ساويرس . ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس كان أول من تكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها .

*

من الذى نشر كتاب ساويرس ؟

وقد نشر المستشرق إفتس B. Evetts كتاب ساويرس بعنوان « سير الآباء البطارقة » أو « تاريخ بطارقة الكنيسة القبطية في الاسكندرية » ضمن مجموعة Patrologia Orientalis أى كتابات « آباء الكنيسة في الشرق »

وذلك في الجزء الأول من هذه المجموعة الذي نشر في باريس ١٩٠٧ م ، والجزء الخامس ، باريس ١٩١٠ م ، والجزء العاشر ، باريس ١٩١٥ م .

واعتمد Evetts على مخطوط هذا الكتاب الموجود في المكتبة الأهلية في باريس وقابله على مخطوط لندن والفايتيكان .

راعى اقتس مقابلة النص العربي بترجمة انجليزية في كل صفحة . كما عنى عناية كبيرة بالحواشى والتعليقات .

وتولت جمعية الآثار القبطية ، مشكورة ، نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبد المسيح أمين مكتبة المتحف القبطى سابقاً والأستاذ برمستر Burmester مدرس اللغات القديمة بجامعة الاسكندرية سابقاً والدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية سابقاً .

ونشرت الجمعية القبطية هذا الكتاب بعنوان « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة » . واعتمد الناشر على مخطوطة محفوظة بالمتحف القبطى ، وعلى مخطوطة ثانية محفوظة بمكتبة الدار البطريركية القبطية .

ونشرت الجمعية القبطية المجلد الثانى ، الجزء الأول في القاهرة ١٩٤٣ م ثم ظهر المجلد الثانى ، الجزء الثانى في القاهرة ١٩٤٨ م ، ونشر أخيراً المجلد الثانى الجزء الثالث في القاهرة ١٩٥٩ م . وقد نشر لكل جزء ترجمة انجليزية على حدة . والملاحظ أن الترجمة الإنجليزية فيها عناية بالحواشى والتفسيرات المختلفة أكثر من النص العربى المنشور ولكنها دون ما نشر على يد اقتس .

منهج كتاب ساويرس :

يعتبر كتاب ساويرس من نوع كتب التراجم المعروفة في التاريخ الإسلامى . ولكنه خاص بتراجم البطاركة في مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن

الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر . وقد وصل مانشر من هذه التراجم إلى بداية حكم الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله سنة ١٩٠٢ م أو ٤٩٦ هـ .

ويبدو من هذه التراجم التي صنفها وجمعها ساويرس ، أنها كانت بمثابة تقويم أو روزنامة للكنيسة المصرية . وأنها كانت تعتمد على المشاهدات والاتصال بأبطال الحوادث ، أو كتابة الأخبار المتواردة حينذاك ، فهي أشبه شيء « بالذكرايات » أو « اليوميات » . ولا تتبين من كتابتها الرجوع إلى مؤلفات سابقة أو معاصرة اللهم إلا في النادر . فزرى ساويرس يستشهد أحياناً بسعيد ابن بطريق لتأكيد صحة بعض ما يكتبه من الأخبار (١) .

*

ونلاحظ أنه منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) — وخاصة منذ فتح العرب لمصر — يصبح تاريخ البطارقة أكثر اكتمالا وأهمية ، إذ يدون الأخبار ويكتب التراجم كتبة معاصرون ، كما يبدأ في هذا القرن السابع الميلادي تاريخ مصر في العصور الوسطى الإسلامية .

ولا شك أن إطلاقنا كلمة العصور الوسطى في التاريخ الإسلامي يهدف إلى الموازنة الزمنية فقط بينها وبين العصور الوسطى في التاريخ الأوربي التي تمتد نحو عشرة قرون بين القرن الخامس الميلادي ، حين عمت الفوضى وساد الاضطراب بسبب غزوات البرابرة التي قضت على الدولة الرومانية ، وبين فاتحة القرن السادس عشر الميلادي حين كانت النهضة الأوربية قد توطدت أركانها ، وقطعت أوربا شوطاً بعيداً في استرجاع ما فقدته في ميادين الحضارة منذ سقوط الأمبراطورية الرومانية .

أما تاريخنا الإسلامي فلا يقسم إلى عصور قديمة وعصور وسطى وعصور

(١) سير الآباء البطارقة ص ١٩١ (P.O.T.L.)

حديثه ، وإن كان بعض المؤرخين يطلقون إسم « العصور الوسطى الإسلامية » على الحقبة من التاريخ الإسلامي المقابلة للعصور الوسطى الأوروبية ، أى على الزمن الواقع بين قيام الإسلام فى بداية القرن السابع الميلادى وامتداد سلطان الدولة العثمانية على جزء كبير من ديار الإسلام فى القرن السادس عشر . ويدمج أولئك الباحثون تاريخ الإسلام بعد هذه الحقبة فى تاريخ العصور الحديثة .

*

ويهدف ساويرس من تراجم البطارقة وسيرهم إلى غرض دينى يحتم وهو تمجيد الدين المسيحى والإشادة بالمذهب الأثوذكسى أو — كما يسميه ساويرس — الأمانة المستقيمة ، وبيان جهاد البطارقة فى سبيل حمل أمانتهم .

فهذا الكتاب يختلف فى هدفه عن الكتب التاريخية العامة أو الخاصة ومع ذلك فهو يشترك معها جميعاً فى أن الدين كان يمتزج بالتاريخ امتزاجاً شديداً . وهذه ظاهرة نلمسها فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى كما نلمسها فى التاريخ الإسلامى . ومن هنا نرى أن ساويرس وإن كان قد أرخ للبطارقة وللكنيسة القبطية فى العصر الإسلامى إلا أنه اشترك مع مؤرخى ديار الإسلام ومؤرخى العصور الوسطى الأوروبية فى أنه مزج بين الدين والتاريخ .

*

كذلك نرى مؤرخ البطارقة يشترك مع مؤرخى ديار الإسلام ومؤرخى أوروبا فى العصور الوسطى فى سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات . فيحدثنا مثلاً عن الدموع التى تسيل من صور القديسين والشهداء ، والدم الذى يقطر من هذه الصور والأيدى التى تمتد خارجها . كما يكترس ساويرس من ذكر كرامات بعض البطارقة ورجال الدين المسيحيين مثل إعادة البصر لمن فقدته وإعادة الحياة لمن غرق ، وإعادة الصحة لمن استعصى شفاؤه .

وليس هذا الكلام بمستغرب على ساويرس ، فان ساويرس يمثل عقلية العصور الوسطى ، إذ كان الاعتقاد بالخرافات والكرامات لا يقتصر على الطبقة العامة كما هو معروف للآن وإنما كان هذا الاعتقاد شائعاً بين مختلف طبقات الشعب ، بل أننا نرى أمير مصر في أوائل القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي ، محمد بن طنج الأخشيد ، يكرم رجلاً من دمياط قيل أن يده كانت مقطوعة وأنه غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة (١) .

ولعل الأكثر من الكلام على كرامات البطارقة ورجال الدين المسيحيين كان الغرض منه حث الأقباط على الاستمسك بدينهم والالتفاف حول كنيستهم وقلوبهم المعنوية في أوقات المحن والشدائد .

*

كذلك نرى ساويرس — مثل غيره من مؤرخي العصور الوسطى — يعلل الأشياء في الغالب تعليلاً الهامياً سماوياً فكل ما يحدث سببه رضا الله أو غضبه وسخطه ، ولا يحاول بعد ذلك تحليل الأشياء بالدرس والنقد والتمحيص . فيذكر مثلاً أن الله كان يخذل جيوش الروم عندما فتح العرب مصر بسبب أماتهم الفاسدة وبسبب عقيدتهم الخلقونية (٢) . دون أن يحاول بيان أسباب انتصار العرب وخذلان الروم . وليست تلك العقلية بعيدة عنا ، فعندما أرادت وزارة المعارف العمومية في مستهل القرن العشرين إدخال مادتي الطبيعة والكيمياء في الأزهر اعترض بعض رجاله على ذلك وقال أحدهم :

فن يقل بالطبع أو بالعله فذاك كفر عند أهل الملة

ثم أدخلت هاتان المادتان ضمن برامج الدراسة في الأزهر الشريف بعنوان : « علم خواص الأشياء التي أودعها الله في المخلوقات » .

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) أنظر ساويرس : سير الآباء البطارقة ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٤٩٣ (P.O.T.L.)

وبرغم اتقان ساويرس للغة العربية وصعوبة فهمه للغة القبطية واليونانية ،
إلا أننا نلاحظ في كتابته أخطاء كثيرة في النحو كما نلاحظ وجود كلمات دخيلة
من القبطية واليونانية .

ونلاحظ أن مؤرخ البطارقة يكثر من الألفاظ الإسلامية الشائعة مثل كلمة
المؤمنين ويعني بهم الأرثوذكسين ، والمصاحف ويعني بها المجلدات ، كذلك يطلق
لفظ المصطفى على القديسين فيقول مثلاً القديس مرقس الانجيلي المصطفى .

أهمية كتاب ساويرس في تاريخ مصر الإسلامية :

يتعرض كتاب ساويرس — في خلال تراجم البطارقة — لتاريخ العصور
الوسطى الإسلامية في فترة تقرب من خمسة القرون ، تلك الفترة من التاريخ
الإسلامي التي شهدت ميلاد أمة ، واتساع فتوحات ، وتوحيد شعوب ، وقيام
حضارة زاهرة خلفت للانسانية تراثاً مجيداً .

وطبيعي أن يركز ساويرس اهتمامه بمصر الإسلامية ، فيبين لنا كيف تم
فتحها على يد العرب ، ثم كيف كانت معاملة الفاتحين العرب للأقباط
من النواحي الدينية والمالية والاجتماعية والإدارية .

كذلك يفصل ساويرس الكلام على الأحداث الهامة السياسية والدينية
والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في العصر الذي اصطللحنا على تسميته
«عصر الولاة» وهو الذي يبدأ بفتح العرب لمصر وينتهي بقدم أحمد بن طولون
إليها وتأسيسه الدولة الطولونية فيها . ويبين ساويرس انتقال مصر من التبعية
للخلافة إلى الاستقلال الذاتي أيام الدولتين الطولونية والاشيدية ، ثم قيام
الخلافة الفاطمية في مصر التي نافست الخلافة العباسية في بغداد لفترة من الزمن .
كذلك يبين ساويرس علاقة البطارقة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها

من ناحية ، ثم علاقة هؤلاء البطارقة بالنوبة والحبشة وشمال افريقية والشام من ناحية أخرى .

*

ولا يغفل ساويرس الكلام على علاقة المسلمين في مصر باخوانهم المسيحيين ، وعلى الكنائس التي بنيت أو جددت في العصر الإسلامي ، وعلى تسامح الولاة والأمراء والخلفاء ، مع المسيحيين في مصر ، وعلى تشدد البعض منهم . كذلك يتضح لنا من كتابات ساويرس أن حكام مصر الإسلامية كانوا يتخذون الأصدقاء من بين أهل البلاد الأقباط ، ومن الرهبان والبطارقة ، ورجال الدين للمسيحيين عامة .

*

وقد أشار ساويرس في تاريخه إلى الرخاء في مصر في معظم الأحيان ، كما فصل الكلام عن القحط والوباء والمجاعات في بعض السنين ، بل إن ساويرس يهتم بهذه الظواهر التي ترد في حوليات الكنيسة المصرية أكثر من اهتمام سائر المؤرخين بها ، وينفرد بذكر بعض المجاعات التي يرد ذكرها لدى غيره من المؤرخين المصريين .

ولاشك أن ساويرس يشترك مع بقية المؤرخين في ذكر كافة الأحداث الهامة ، مع العناية بشئون مصر على غرار المؤرخين المصريين مسلمين كانوا أو مسيحيين . لكنه يمتاز عليهم جميعاً بأن كتابه له قيمة الحوليات ، والمذكرات ، والمصادر المعاصرة ، في وقت تتلمس فيه المصادر المعاصرة للفتح العربي في مصر وما بعد الفتح بحوالى قرنين ونصف من الزمان فلا نكاد نجد لها اللهم إلا بعض الأوراق البردية ، وكتاب « التاريخ » للمؤرخ المسيحي حنا أسقف نقيوس^(١) ، الذي توفي في أواخر القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) .

(١) نقيوس : قرية ابشادي الآن — مركز تلا بالمنوفية .

وقد وضع حنا النقيوسى كتابه فى تاريخ مصر باللغة القبطية ، وجاء فيه ذكر الحوادث التى وقعت زمن الفتح العربى لمصر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانية والعربية ، ثم قام أحد القساوسة المصريين بترجمة النسخة العربية إلى اللغة الأثيوبية . ولم يبق مما كتبه هذا المؤرخ المصرى سوى النسخة الأثيوبية التى نشرها الدكتور M. H. Zotenberg مع ترجمة فرنسية لها .

أما أقدم مؤرخ مصرى نعرفه بعد ذلك فهو ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » والمتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ - ٨٧١ م) .

*

ومما يزيد فى قيمة كتاب ساويرس أنه يبين منذ فتح العرب لمصر وجهة نظر المسيحيين والرهبان المصريين نحو الحكومات الإسلامية ، ونحو إخوانهم من المصريين المسلمين .

ولا يهمنى الآن الحديث فيما اشترك فيه ساويرس مع بقية مؤرخى الخلافة ومؤرخى مصر الإسلامية ، وإنما يهمنى الكلام فى حديثنا هذا على بعض ما انفرد ساويرس بالكتابة فيه أو توضيحه .

ولعل من أهم الأمور التى انفرد ساويرس ببيانها أو توضيحها بحكم تأريخه للبطاركة والكنيسة وللأقباط ، ما كتبه عن مركز المسيحيين فى مصر الإسلامية من الناحية الاجتماعية ، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية ، وقيامهم بشعائرهم ، والاحتفال بأعيادهم ، وبناء أو تجديد كنائسهم ، وعلاقة المسيحيين بإخوانهم المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان ، وموقفهم من الحكومات الإسلامية المتعاقبة فى مصر الإسلامية .

*

كذلك أفاض ساويرس فى حديثه عن انتشار الإسلام فى مصر ، بل

إنه في بعض الأحيان يعطينا أرقاماً بعدد الذين تحولوا إلى الدين الإسلامي في ظروف معينة .

*

إذا قرأنا ساويرس سوف نخرج بأن العرب حين جاءوا لفتح مصر عمدوا إلى التغامر مع الأقباط ، أهل البلاد الأصليين . أما حربهم فكانت موجّهة ضد البيزنطيين المسيطرين على مصر حينذاك .

وكانت أول حسنة من حسنات العرب نحو أهل البلاد بعد فتحها ، أن أعطى عمرو بن العاص بطل فتح مصر ، الأمان للأب بنيامين بطرك الأقباط الذي كان مختلفاً بالصعيد منذ قدوم قيرس ، أو المقوقس ، واليا على مصر من قبل الأمبراطور البيزنطي هرقل .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لعودة راعيهم بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاماً . وبالغ عمرو بن العاص ، قائد العرب في مصر وبطل فتحها ، في الحفاوة به ، وأعطاه الحرية ليشرّف على الكنائس ويرعى الأقباط .

ولا نستبعد أن يكون الأقباط قد وقفوا من وراء راعيهم ، بشدون أزر العرب حين أغار البيزنطيون أو الروم على الأسكندرية يريدون استرجاع مصر بعد أن فتحها العرب بثلاث سنوات .

وقد أكد ساويرس أن الحكومة الإسلامية منذ البداية ، انتصرت للأقباط الأرثوذكس أو اليعاقبة على أعدائهم في المذهب وهم الملكانيين .

وكما اعتبر الأقباط أن الملكانيين هم أتباع الملك البيزنطي ، وأنهم ليسوا أعداءهم في المذهب الديني فقط وإنما أعداءهم في القومية ، كذلك أزر العرب الأرثوذكس باعتبارهم أصحاب البلاد ، واعتبروا الملكانيين سندا لأعداءهم الروم (١) .

(١) أنظر ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ج ٢ ص ٧٨ (الجمعية القبطية) .

ويذكر ساويرس أن الملكانيين في العصر الإسلامي في مصر، لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا في فترات وتحت ظروف معينة .

*

ولم تتدخل الحكومات الإسلامية في الشعائر الدينية عند أهل الذمة ، بل كان بعض الأمراء والخلفاء يحضرون معهم وأعيادهم .

أما أبناء مصر من المسلمين فكانوا لا يجدون غضاظة في الاشتراك مع الأقباط في تلك الاحتفالات .

*

ولم تكن للدولة الإسلامية سياسة ثابتة بشأن بناء الكنائس والأديرة فكانت تسمح للمسيحيين في معظم الأحيان ببناء كنائس جديدة ، وكانت تمنعهم في بعض الأحيان حتى من إصلاح الكنائس القديمة .

*

كذلك يبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيراً من الوظائف في العصر الإسلامي ، وخاصة الوظائف المالية . ويورد ساويرس في مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط .

*

ويشيد ساويرس بتسامح الخلفاء الفاطميين اللهم إلا عهد الحاكم بأمر الله الذي كان يمتاز بالتقلب مع جميع المذاهب . بل إن ساويرس يذكر أنه في العصر الفاطمي أصبح « جميع مقدمى الملكة والناظرين في دواوينها وتدير أمورها كلهم نصارى (١) » .

(١) ساويرس : المجلد الثاني - الجزء الثالث ص ١٧٢ . (نشر الجمعية القبطية) .

ويذكر ساويرس أن الحكام المسلمين لم يتدخلوا في شئون الأقباط الدينية إلا في النادر حينما يطلب منهم فض النزاع بين الأساقفة ، وذلك حرصاً على الأمن العام .

كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا في تعيين أحد البطارقة بعد أن يتم انتخابه بوساطة الأساقفة إلا إذا اختلفت الأساقفة فيما بينهم (١) .
ويؤكد ساويرس أن الدين لم يفرق بين المصريين في الشعور بأنهم أبناء وطن واحد .

*

أما عن انتشار الإسلام في مصر منذ أواخر عصر الولاة ، فيتضح لنا مما كتبه ساويرس أن العامل المالى من أهم العوامل التي حولت أغلبية الأقباط إلى الدين الإسلامى وطبيعى أننا لا نشك في كتابات ساويرس في هذا الصدد ، إذ أن ساويرس لم يكن ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم إلى الدين الإسلامى بالقوة .

*

ويتضح من كتابات ساويرس أن الرهبان كانوا يبغضون الحكومة الإسلامية لأنهم كانوا يفتنون في البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ والى مصر عبد العزيز ابن مروان (٦٥ - ٨٨٦ = ٦٨٤ - ٧٠٥ م) سنة فرض الجزية عليهم .

والمعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك في مصر . فالرهبانية نتيجة طبيعية للتعاليم المسيحية الأولى . وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن البيزنطيين ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا في عزلة عن العالم منفردين أو جماعات في أديرة ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويعيش في عزلة

عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة . على أن الأديرة التي كانت تزداد كثرة على مر الأيام ، ما لبث أن وقف عليها أملاك كثيرة ، وما لبثت أن احتوت المجوهرات والأموال والتفائس . لكن الحكومة في عهد الرومان والبيزنطيين أعفت الأديرة والرهبان من الضرائب .

ولما فتح العرب مصر حافظوا على هذا التقليد . وما لبث العرب أن فطنوا إلى أن الأديرة أصبحت تملك ثروات ضخمة وإلى أن كثيراً من الأقباط لجئوا إليها كي يتخلصوا من الضرائب .

ولذا نرى والى مصر عبد العزيز بن مروان — وأخ الخليفة عبد الملك بن مروان — يأمر بإحصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم . كما أنه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدرًا معينًا من المال سنويًا بالإضافة إلى خراج أملاكهم .

*

ويذكر ساويرس في مناسبات مختلفة أن التشريعات المالية الخاصة بالأقباط أو الأساقفة أو الرهبان أو البطريرك كانت تصدر بتحريض من الأقباط ورجال الدين المسيحيين أنفسهم .

وكانت الحكومة الإسلامية تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الضرائب ، كما كانت تتشدد في جمع الجزية من الأقباط .

ويبين ساويرس أن كثيراً من الأقباط أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم ، كما يذكر أن الأقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة ، تنطوي على الهروب من مكان إلى مكان ، وهجر الأراضي الزراعية ، وذلك منذ خلافة الوليد بن عبد الملك الأموي (٨٦ — ٨٩٦ م = ٧٠٥ — ٧١٤ م) وفي أثناء ولاية أخيه عبد الله بن عبد الملك (٨٦ — ٨٩٠ م) .

سكن والى مصر أمر بوسم الغرباء الذين وجدوا في الأقاليم المختلفة ، على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى أماكن مختلفة (١) .

واستمرت حركة الهروب في ولاية قره بن شريك الذي أتى بعد عبد الله بن عبد الملك (٩٠ — ٨٩٦ هـ) . وتشدد قره في قمع تلك الحركة والقضاء عليها .

*

ونلاحظ أن حركة الهروب لم تكن جديدة في التاريخ المبرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون قراهم في العصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب .

وقد اتخذت حركة الهروب في عهد قره بن شريك شكلاً واسعاً . فيذكر ساويرس أن أسرات بأكلها كانت تهرب من مكان إلى مكان فراراً من دفع الضرائب . واضطر قره إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه . وظل قره يقاوم تلك الحركة بنشاط إلى أن توفى سنة ٨٩٦ = ٧١٤ م .

ويؤيد كلام ساويرس ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التي ترجع إلى عهد هذا الوالى (٢) .

وبعد وفاة قره والخليفة الوليد ، ولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى في خلافة سليمان بن عبد الملك .

وقد تشدد أسامة بن زيد في طلب الجزية والخراج . وأسلم الكثيرون في أيامه كي يتخلصوا من الأعباء المالية ، ولكن حركة الهرب استمرت ، من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا في اعتناق الدين الاسلامى .

وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد ، غريباً في الكنائس أو الفنادق أو السواحل .

(١) ساويرس ص ٥٦ . . . (P.O.T.V.)

(٢) أنظر مثلاً ، Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. p. 24, Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band II.) pp. 270, 274-275.

ويذكر ساويرس أنه لشدة الخوف من أسامة بن زيد طرد الناس من كان عندهم من الغرباء أو الهاربين (١) .

ولكى لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالي أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم . فالزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى في أنحاء القطر ، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها ، أن يحمل معه سجله . أما من فقد سجله أو أتلفه فقد أزمه الوالي بالحصول على سجل آخر مقابل دفع خمسة دنانير (٢) .

والواقع أن ساويرس هو المؤرخ الوحيد الذى كتب وفصل لنا الكلام على حركة الهروب ، تلك الحركة التى تنطوى على مقاومة الأقباط لحكومة العرب مقاومة سلبية بعدما أصبح الالتجاء إلى الأديرة ، لا يعفيهم من الالتزامات المالية منذ خلافة عبد الملك بن مروان وولاية أخيه عبد العزيز على مصر .

*

وكان القروض أن من يسلم يعنى من الجزية . والظاهر أن نفراً كان قد أسلم حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ = ٧١٧ - ٧١٩ م) بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فإن الاسلام قد أضر بالجزية ... » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم . ولكن الخليفة أرسل إليه رداً شديداً يقول فيه : « فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك ! ! فان الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم « هادياً ولم يبعثه جايياً... » (٣)

(١) ساويرس ص ٦٨ ... (P.O.T.V.)

(٢) ساويرس ص ٧٠ (P.O.T.V.)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٦ ، المقرئى الخططج ١ ص ٧٨ (ط . بولاق) .

ولكن سياسة أخذ الجزية ممن يسلم كانت قد بدأت على يد الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ م) وذلك حتى لا يؤثر اعتناق الدين الاسلامي في ميزانية الدولة .

أما عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان فإنه لم يقدم على تنفيذ تلك الخطوة ، وإن كان من المحتمل أن هذه السياسة كانت قد بدأت في مصر قبل خلافة عمر بن عبد العزيز بدليل أن إعفاء من يسلم من الجزية كان يترتب عليه إسلام الكثيرين . كذلك لم تستمر سياسة عمر بن عبد العزيز في الخلافة الاسلامية عامة وفي مصر خاصة بعد وفاته والتي تنطوي على إعفاء من يسلم من الجزية .

فيذكر ساويرس مثلاً أنه في خلافة مروان بن محمد ، أعلن والى مصر حفص بن الوليد (١٢٧ — ١٢٨ = ٧٤٥ — ٧٤٦ م) إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامي (١) .

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة العباسي الأول أبا العباس عبد الله السفاح قرر أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامي ويقيم شعائره ، فتخلى كثير من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامي بسبب فداحة الجزية والأعباء للقاء عليهم (٢) .

*

ومما لا نشك فيه أن الأمثلة التي يوردها ساويرس ، والتي تبين أن الأقباط الأغنياء ضجوا من الجزية والضرائب كما ضج الفقراء ، تظهر أن الجزية كانت للورد الرئيسي للمال الذي تعنى به الحكومة الإسلامية ، وأنها كانت أمراً ثقيلاً ، ولم تكن بالضريبة الهينة وإلا لما حملت الكثيرين على التخلي عن دينهم .

(١) ساويرس ص ١١٦ — ١١٧ ... (P.O.T.V.)

(٢) ساويرس ص ١٨٩ — ١٩٠ ... (P.O.T.V.)

وتؤكد كتابات ساويرس أن الحكومة الإسلامية في مصر لم تحدد الجزية على أهل الذمة بعد الفتح ، وإنما اكتفت بفرضها وتركت تقديرها للظروف . وهذا يؤكدنا برواية كتبها أقدم مؤرخ مصري مسلم وهو ابن عبد الحكم ، إذ يقول أن أحد أصحاب السكور الأقباط (والكورة لفظ مشتق من اليونانية ومعناه قسم من أقسام مصر) قدم على عمرو بن العاص فقال له : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية .. » . فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة : « لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك . إنما أتم خزانة لنا إن كثر علينا كثر عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم (١) » .

على أن الأقباط بدءوا منذ سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) في التخلي عن مقاومتهم السلبية وأخذوا يقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية وذلك بالقيام بالثورات العلنية ضد الحكومة .

والعروف أن العرب تركوا للمصريين أراضيهم ، وأمنوم عليها وفرضوا عليها الخراج . ولم تكن أرض مصر في بداية الفتح العربي لها أرض خراج حسب — أي أرض تفرض عليها الضريبة العقارية — وإنما نشأ فيها أرض العشر ، أما قطعة منحت لبعض المسلمين ، أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو الأقباط بطريق الشراء ، أو أرض موات (٢) احتلوها .

ونلاحظ أن الأراضي التي كانت ملكاً خاصاً للباطرة أو التي هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح العربي ، آلت إلى حكومة العرب في مصر . وقد زادت تلك الأراضي زيادة كبيرة أثناء الحكم العربي نفسه بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة .

وكانت الأراضي التي يمتلكها المسلمون في بداية الفتح العربي لمصر ، لا يدفعون

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة توري) ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) الموات بعكس العامر من الأرض أي الأرض المهجورة التي تحتاج إلى تعمیر وإصلاح .

عنها خراجاً وإنما كانوا يدفعون عنها العشر زكاة ، كما يركى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية

ولا شك فى أن ذلك حدث طويلاً ، ثم رأت الحكومة أن فى هذا جل الخطر على مالية البلاد ، فأصبح نوع الضريبة متصلاً بالأرض نفسها ، وأصبح القبطى إذا اعتنق الاسلام لا تعفى أرضه من الخراج .

والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة ومالياتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الاسلامى ، مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى مالياتها . بل ان هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصبح هذه الأرض عشرية .

*

وحين بدأ الأقباط يثورون ضد حكومة العرب بسبب مطالبها للمالية المجحفة ، وجدوا فى العرب الذين زاد عددهم فى مصر وأصبحوا يملكون أراضى خراجية ، شريكاً لهم فى تلك الثورات . ولهذا نرى سائر مؤرخى مصر الاسلامية يشتركون مع ساويرس فى ذكر تلك الثورات بل يفصلون الكلام أحياناً فيما لا يفصل فيه مؤرخ البطارقة .

وقد تعددت ثورات الأقباط مع ثورات العرب وشملت الوجهين البحرى والقبلى . وكان أعنف هذه الثورات تلك التى كان يقوم بها أهل البشمور أو البشروء ، وهى المنطقة الرملية الساحلية بين فرعى دمياط ورشيد .

*

ولم يزل الأقباط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى

والثامن الميلادى ، وكانت حكومة العرب تقابل القوة بالقوة ، وتشددت في إصلاح الأرض الموات وفي مراقبة الزراعة والهجرة .

*

وكان يتبع اخماد تلك الثورات في العادة تمحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى .

وكان آخر تلك الثورات وأعظمها تلك التى انتهت في بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ) والتاسع الميلادى (٨٣٢ م) بمجىء الخليفة المأمون وإخضاعه للتأثرين والتى كان من نتائجها أن أصبح المسلمون أغلبية في القطر المصرى .

*

ويخبرنا ساويرس أن الخليفة المأمون صحب معه إلى مصر البطرک ديونوسيوس بطرک انطاكية (١) وأنه استعان به وبيطرک الأقباط الأنبا يوساب ، لإخماد ثورة البشموريين بالين والمفاوضة ، ولما لم ينفع اللين سير إليهم قائده الأفشين لمحاربتهم ، ثم سار إليهم بنفسه وقضى على حركتهم .

*

ويتضح لنا مما كتبه ساويرس أن الشعور الوطنى كان ضعيفاً بين المصريين آنذاك ، فلم يكن في ثورات الأقباط ضد حكومة العرب عنصر وطنى ، بل كانت كلها بسبب الضرائب ، أما لمل الحكومة على تخفيفها وعدم اتباع القسوة في جبايتها ، واما للهرب من دفعها . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب للقضاء على حركات الأقباط .

(١) ساويرس ص ٤٩٢ ... (P.O.T.X.)

ويؤكد سلبية الشعب المصري حينئذ ما نعرفه من أن أهل البلاد لم يشتركوا في الحركات السياسية والدينية التي قامت في الخلافة ، والتي اشترك فيها الجند العربي في مصر والأجناد الأخرى الذين أتوا إليها في عهد الدولة العباسية ، مثل الثورة إلى انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والنزاع بين علي ومعاوية ، والخلاف بين الأمين والمأمون .

أما الأقباط فقد اشتركوا فقط في معاونة العباسيين الذين كانوا قد نجحوا في إسقاط الدولة الأموية في المشرق والذين أتت جيوشهم وراء الخليفة الأموي مروان بن محمد في مصر .

ولا يدعنا ساويرس تتلمس الأسباب التي دعت الأقباط إلى معاونة العباسيين في مصر فيذكر أن العباسيين وعدوا الأقباط بتخفيف الجزية والخراج عنهم (١) .

*

والواقع أننا لا نجد مؤرخاً غير ساويرس يفسر لنا السبب الذي حمل أغلبية القبط على التحول إلى الدين الإسلامي . فساويرس يؤكد دائماً أن الهروب من الجزية ومن الضرائب كان أكبر عامل على انتشار الإسلام في مصر .

وهو يزن دائماً الولاة والأمراء والخلفاء القواطم بالميزان المالي ، ولهذا ترى مؤرخ البطارقة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكيم على طرفي نقيض ، لأن هذا الأمير قد يكون رحيماً بأهل الذمة في وقت من الأوقات ، وقد يشتد في جمع الضرائب والجزية في وقت آخر ، ومثل ذلك كلام ساويرس على الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، والخليفة المتوكل على الله العباسي وأمير مصر أحمد بن طولون .

(١) ساويرس ص ١٦٠ ، ١٦٧ — ١٧٠ ، ١٧٢ — ١٧٤ ، ١٨٧ — ١٨٨

*

وواضح من كتابات ساويرس أن الأساقفة والبطاركة ورجال الدين المسيحيين كان يفرض عليهم أموال كثيرة ، وكان رجال الدين يلجئون بدورهم إلى الشعب القبطي ليدفع هذه الأموال . وكانت أحسن فرصة للخلاص من كل هذه الأعباء الدخول في الدين الإسلامي .

ومن الأمثلة الصارخة التي يبين فيها ساويرس إسلام الكثيرين بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال ما حدث في خلافة المنتصر العباسي (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ - ٨٦١ - ٨٦٢ م) حينما ولي خراج مصر أحمد بن محمد بن المدبر ، إذ فرض هذا الوالي ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى الأقباط عامة مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الاسلام .

*

والواقع أن مغالاة ابن المدبر في ابتزاز الأموال من مصر لم تكن وفقاً على المسيحيين وإنما كانت عامة على أهل مصر كلهم كما يذكر ساويرس وسائر المؤرخين (١)

والمعروف أنه أنشئ في العصر العباسي ديوان خاص للنظر في شئون أهل الذمة سمي « ديوان الجوالي » وكان على رأسه موظف من كبار المسلمين .

*

ويحدثنا ساويرس عن شخصيات من رجال الدين الأقباط الذين خرجوا للشكوى في مقر الخلافة العباسية من الأعباء المالية ، ومثل ذلك خروج أحد رجال الدين المسيحيين في مصر واسمه ابراهيم إلى مقر الخلافة في أيام الخليفة المعتز

(١) ساويرس - المجلد الثاني ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ (نشر الجمعية القبطية) .

(٢٥٢ — ٢٥٥ هـ — ٨٦٦ — ٨٦٩ م) يشكوا تصف ابن المدبر ، فكتب الخليفة سجلا بالتخفيف عن النصارى ، ثم أكد هذا السجل الخليفة المهدي (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) الذي ولى بعد المعتز والذي أمر بأن يرد إلى النصارى ما اغتصب منهم من المنقولات والأراضي (١) .

*

وقد أتيح لأهل الذمة في مصر وفي مختلف أنحاء الخلافة أن يتقلدوا وظائف مختلفة في الدولة وأن يزداد نفوذهم حتى وصل بعضهم إلى الوظائف العليا في الإدارة، كما وصل آخرون إلى أن يصبحوا الكتاب الرئيسيين والوزراء عند بعض الولاة والأمراء والخلفاء .

وكان هذا يؤدي في بعض الأحيان إلى احتجاج الفقهاء وثورة الشعب للمطالبة بالحيلولة دون سيطرة أهل الذمة ، مما كان يستتبع إصدار تشريعات تحد من نشاط أهل الذمة وتبعدهم عن وظائف الحكومة وتلزمهم بالتزام زى يميزهم عن المسلمين .

ومن ذلك ما حدث في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الذي أمر بعزل أهل الذمة من مناصب الدولة الهامة ومنعهم من انشاء الكنائس أو المعابد الجديدة ومن لبس العمام . وقد نسبت هذه الاجراءات خطأ إلى عمر بن الخطاب . ويحدثنا ساويرس عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيماً أمام الناس ، ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر باعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج ، وعمر المدن التي خربت ، وأبطل الجبايات (معناها الضرائب للمستحدثة) فعاش الأقباط في أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ماداموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله

(١) ساويرس - المجلد الثاني ج ١ ص ٢٢ - ٢٣ (نشر الجمعية القبطية) .

فليكن على دين محمد ، ولهذا سلم الأقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين (١).

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢ - ٨٤٧ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) أمر بهدم الكنائس وأن يتميز المسيحيون واليهود في لباسهم عن المسلمين كما أمر أن يشغل الوظائف المسلمون فقط . ويذكر ساويرس أن كثيرين أسلموا حينئذ اما لحاجتهم وققرهم ، واما رغبة منهم في الإبقاء على مناصبهم (٢).

والواقع أن مؤرخي الخلافة ومؤرخي مصر الإسلامية يشتركون مع ساويرس في تفصيل اضطهاد المتوكل لأهل الذمة .

*

لكن من الملاحظ أن التشريعات التي كانت تصدر ضد أهل الذمة ، لم تكن تنفذ كاملة ، وكان أثرها يخف كثيراً إلى أن تقوم تشريعات جديدة لتأكيدها .

ولعل أبلغ مثل لذلك أن ساويرس نفسه يعود فيمتدح المتوكل مدحاً كثيراً ، فيقول أنه في أواخر أيام المتوكل استقامت أمور النصارى وأسبغت عليهم النعم العظيمة (٣).

*

ويظهر أيضاً مما كتبه ساويرس أن التمييز بين المسلمين وأهل الذمة في الزى ، لم يكن المقصود منه دائماً الحط من شأنهم أو تحقيرهم ، فقد أمر الوزير الفاطمي

(١) ساويرس : ص ٧١ - ٧٢ (P.O.T.V)

(٢) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ٤ (نشر الجمعية القبطية) .

(٣) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ١١ (نشر الجمعية القبطية) .

بدر الجمالى ، بأن يميز بين المسلمين والنصارى ، وبين النصارى واليهود فى اللباس .
وكان ذلك بناء على مشورة مستخرج الجوالى (أى القائم بثئون الجزية) (١) .
ولا يتطرق إلينا الشك فى أن هذا التمييز فى أثناء الخلافة الفاطمية المتسامحة ،
وفى عهد وزير عرف بالتسامح الشديد ، وبناء على مشورة المشرف على جمع الجزية ،
لا يتطرق إلينا الشك فى أن هذا التمييز كان لتيسر جمع الجزية المقررة على النصارى
واليهود فى مصر .

المساجلات الدينية :

ونعرف مما كتبه ساويرس أنه كانت هناك مساجلات دينية فى بلاط الخليفة
الفاطمى المعز لدين الله (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ = ٩٧٣ — ٩٧٥ م) للمناظرة
والتحدث فى الأديان السماوية الثلاثة والمفاضلة بينها . وكان ساويرس نفسه ممن
جادل شيوخ المسلمين واليهود فى بلاط المعز (٢) .

*

ويشبه هذا ما وصل إلينا من رسائل ونصوص فى الدفاع عن الإسلام
وأخرى فى الدفاع عن النصرانية تشهد بأن مناقشات دينية كانت تدور فى البلاط
العباسى ، يسمح فيها لأعلام المسيحيين بعرض محاسن النصرانية ، ويتكلم أعلام
المسلمين ، أو يكتبون فى الرد عليهم وبيان محاسن الإسلام .

ومن ذلك ، الدفاع الذى ألقاه تيموثاوس بطرك النساطرة (سنة ١٦٤ هـ =
٧٨١ م) أمام الخليفة المهدى .

ومنها رسالة كتبها عبد المسيح بن اسحاق الكندى تضم مساجلة قامت فى
بلاط المأمون سنة (٢٠٤ هـ = ٨١٩ م) فى المقابلة بين محاسن الإسلام والنصرانية :

(١) ساويرس : المجلد الثانى ج ٣ ص ٢١٨ (نشر الجمعية القبطية) .
(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤ (نشر الجمعية القبطية) .

وكتب على الطبرى المتوفى سنة ٢٥٠ هـ (٨٥٤ - ٨٥٥ م) كتاباً فى الدفاع عن الدين الإسلامى وشرح حقائقه سماه « كتاب الدين والدولة » .
The Book of Religion and State, edited and translated
by A. Mingana, Manchester 1922-1923

وأشار المؤلف فى هذا الكتاب إشارات كثيرة إلى الكتاب المقدس ، ولعله اعتمد فى ذلك على نص التوراة السريانى أو على ترجمة عربية قديمة .

والواقع أن أقساماً من التوراة كانت قد نقلت إلى العربية فى نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) عن السريانية أو اليونانية . ولكن أول ترجمة عربية هامة للتوراه كانت على يد سعيد الفيومى المصرى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) ولا تزال معتمدة عند اليهود المتكلمين بالعربية إلى اليوم .

ولا ريب فى أن هذه الترجمات مكنت بعض علماء المسلمين من مناقشة النصارى ومن بين أولئك العلماء الجاحظ .

والواقع أن العلاقة كانت طيبة فى معظم الأحيان بين المسلمين وأهل الذمة وأن التسامح الدينى الذى قام فى الامبراطورية الإسلامية لم تكن تعرفه أوروبا فى العصور الوسطى بل أنها لم تعرفه إلا بعد الثورة الفرنسية .

الاسكندرية :

ونلاحظ أن ساويرس يعنى بالتأريخ للاسكندرية عناية خاصة . وليس هذا بمستغرب فالاسكندرية كانت مقراً لبطركية الأقباط . ولذا نراه يسميها فى معظم الأحيان المدينة العظمى .

*

ويذكر ساويرس أن الاسكندرية كانت تعرف باسم مدينة قيسرون ويقول

أيضاً أنها تسمى باللغة العبرانية مدينة آمون (١).

ويؤكد ساويرس في مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الاسكندرية كانت منذ العهد اليوناني حتى عصر الأخشيديين تعتبر في معظم الأحيان جزءاً مستقلاً عن مصر حتى في القضاء (٢).

*

وبهذه المناسبة عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون ، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسي ، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف ما جرت به العادة فإنه لم يكن بين والي الاسكندرية ووالي مصر معاملة ولا خطاباً بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان واحد (٣).

كذلك يحدثنا ساويرس عن أهمية الاسكندرية التجارية وأنها احتفظت بتلك الأهمية بعد فتح العرب لها فظلت ميناءً تجارياً هاماً تأتيتها التجارة براً وبحراً (٤).

*

ولم يفت ساويرس أن يتكلم عن تحسين مدينة الاسكندرية . فالمعروف أن الروم كثيراً ما أغاروا في العصر الاسلامي على الاسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد أغار الروم على دمياط وسواحل مصر في خلافة المتوكل على الله العباسي (٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) وحين كان عتبة بن اسحق واليها عليها . ويظهر أن غزو الروم في تلك المرة كان وقعه شديداً ، ولذا نرى الخليفة المتوكل ينفق الأموال

(١) ساويرس : ص ١٠٥ — ١٠٦ (P.O.T.I) .

(٢) قارن سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٢١٩ .

(٣) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ٥٩ (نشر الجمعية القبطية) .

(٤) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ٥٣ (نشر الجمعية القبطية) .

في بناء الأسوار والحصون في تينيس ودمياط والاسكندرية وجميع الأعمال بالبرلس ورشيد وغيرها ، ونعرف من مؤرخ البطارقة أن هذه الأعمال تمت في عهد خليفة عنيسة بن اسحق في مصر وهو الوالى التركى يزيد بن عبد الله^(١) (٢٤٢-٥٢٥٣ = ٨٥٦ - ٨٦٧ م)

*

ويثنى ساويرس على الخليفة المتوكل ثناءً كثيراً لأنه أمر بتوصيل القناة التي تجلب ماء النيل إلى داخل الاسكندرية . وكان الماء العذب لا يصل قبل ذلك إلى الاسكندرية إلا وقت الفيضان . وبعد حفر هذا الخليج أصبحت المراكب الكبار تصل إلى داخل المدينة وكثرت المراكب والتجار في الاسكندرية كما زرع الناس الكروم والبساتين على جانبي القناة^(٢) .

*

ويحدثنا ساويرس عن نائر من سكان الاسكندرية من بنى مدلج قام بثورة في أواخر عصر الولاة في الوجه البحرى وانضم إليه جماعة كبيرة مقاتلة من أصحابه ، ومن العربان ، وأخذوا يهاجمون عمال الخراج ويأخذون ما لديهم من أموال . ويذكر أنه لما زادت جماعته ، حاصر مدينة الاسكندرية ، ولكنه لم يستطع فتحها بأى وجه من الوجوه ، وذلك لوقوف حصونها حجرة عثرة في سبيل ذلك ، ولعدم وجود آلات لك الحصون لدى الثوار ، ومع ذلك فأهم حاصروها ومنعوا الليرة من الوصول إليها عن طريق البحر والبحيرة . ويذكر ساويرس أنه لما طال حصار الاسكندرية اجتمع رؤساؤها وتشاورا مع واليها وانفقوا على احاطتها بسور كبير حولها . وقد اشترك في بناء هذا السور أهل الاسكندرية ، إذ بنى كل صاحب دار أو أرض حائطاً أمامه ووصله إلى حائط جاره ، وبذلك أصبح للاسكندرية

(١) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ١٠ (نشر الجمعية القبطية) :

(٢) ساويرس : المجلد الثاني ج ١ ص ١٠ ، ١١ (نشر الجمعية القبطية) .

سور حولها وجعلوا له أبواباً ، ولم يكن يفتح إلا باب واحد في المرة الواحدة
وبذلك تحصنت الاسكندرية وأمن أهلها الأعداء .

ولما وصل والى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ - ٢٥٤ = ٨٦٧ - ٨٦٨م)
استطاع أن يشتت هؤلاء الثوار الذين كانوا قد اتخذوا مراكز لهم بين بنا وأبوصير
في الوجه البحرى فأعمل فيهم القتل بالسيف وأغرق آخرين وأنهزم من بقى منهم
في الجبال بالصعيد (١) .

اللواتيون والشدة العظمى

ومن الأمور التى يوضحها ساويرس وتساعدنا على فهم الوضع الحقيقى للأمور
ما يذكره عن الشدة العظمى التى حدثت أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى .

فقد ذكر المؤرخون المصريون مثل ابن ميسر ، والمقرئى ، وأبى المحاسن
ابن تغرى بردى ، أن الشدة العظمى كان سببها انخفاض ماء النيل وانتشار الوباء
فى مصر حتى انعدمت الغلات من أرض مصر وأكل الناس البغال والحمر والمبىة
ثم أكل بعضهم بعضاً .

ولكن مؤرخ البطارقة يبين بوضوح أثر القلاقل والفتن فى إيجاد هذه الشدة ،
فقد عمت الفوضى والحروب بين الجند وخاصة بين السودانية والأتراك ، فكانت
القاهرة فى يد الجند الترك ، وكان الصعيد فى يد الجند السودانية ، وكانت
الاسكندرية وجزء كبير من الدلتا فى يد فريق آخر من الجند التركية تساعدهم
قبائل قيس ولواتة ، ويبين ساويرس تسلط اللواتيين ، وهى قبائل بربرية الأصل ،
على الريف ويذكر أنهم ملكوا أسفل الأرض أى الوجه البحرى ، وأصبحوا
يزرعونه كما يريدون بلا خراج ولم يهتموا بحفر الترع أو عمل الجسور وانفردوا

(١) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ٣٩ - ٤٤ (بشر الجمعية القبطية) .

بالزراعة دون غيرهم وامتنعوا عن بيع الغلات ، وكانت النتيجة أن رزئت مصر
بفترة مجاعة قاربت من سبع سنين عرفت بالشدة العظمى (٤٥٩ — ٤٦٥ هـ)
١٠٦٦-١٠٨٢ م) .

*

وقد استطاع بدر الجمالى والى عكا الذى استدعاه الخليفة المستنصر لتولى
الوزارة فى مصر ، أن يقبض على ناصية الحال فيها فأباد اللواتيين من الريف ،
وسار إلى الصعيد ففتحته ثم عاد إلى مصر وأقام بها ورتب الأمور فيها كما كانت
عليه فى السابق .

ويذكر ساويرس أن أميراً عرف بكنز الدولة كان قد ملك الصعيد الأعلى
فلما وصل بدر الجمالى إلى مصر هرب كنز الدولة إلى النوبة فأرسل بدر الجمالى
رسولا إلى ملك النوبة كى يسلم له كنز الدولة . وقد سلمه الملك لرسول بدر الجمالى
الذى قتله وصلبه عند باب الحديد الذى يحدد ساويرس موقعه فيما بين القاهرة
المعزية ، وبين مصر أى القسطنطينية أو مصر القديمة (١) .

فكرة الحروب الصليبية

وحين يحدثنا ساويرس عن الصليبيين وقدمهم إلى الشرق لا يعتبر أن هذه
الحروب حرب بين المسيحية والاسلام . وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء
للشرق . ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقباط واليعاقبة سوف
لا يستطيعون الحج لاختلافهم والصليبيين فى المذهب الدينى (١) .

(١) أنظر عن الشدة العظمى : ساويرس المجلد الثانى ج ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٥
(نشر الجمعية القبطية) .

(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ٣ ص ٢٤٩ (نشر الجمعية القبطية) .

هذه فكرة مـجـلـة عن ساويرس ومنهجه في الكتابة وأهم ما جاء في كتابه مما
وضح تاريخنا القومي .

ولاشك أن المجال واسع للمؤرخين والجغرافيين واللغويين لدراسة كتاب
تاريخ البطارقة وللإستفادة منه .

سيدة اسماعيل كاشف